﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيثارُ الحياةِ الدّنيا على رضوان الله تعالى سببُ انسدادِ منافذ الهدى

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقة أنَّ استمرار الكافرين على الكفر أعجب عليهم من ارتدادهم؛ أتبعهم في هذه الآية بسبب ذلك؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، ولما ذكر الله تعالى أنَّ سبب استحقاق المرتدّين الذين شرحوا بالكفر صدرًا بعد تأكُّدهم من صدق الرسول ﷺ وصدق رسالته استحبابُهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ أتبعه هنا بذكر السبب الأكبر، وأنه انسداد منافذ الهدى عليهم، وعدم انتفاعهم بالأدوات التي منحهم الله تعالى لينتفعوا بها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَبَعَ﴾: "الطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة ما، كَطَبْعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمُّ من الختم، وأخصُّ من النّقش، والطّابَعُ والخاتم: ما يُطْبَعُ ويختم، والطّابِعُ: فاعل ذلك، وقيل للطّابَعِ: طابِعٌ، وذلك كتسمية الفعل إلى الآلة، نحو: سيف قاطع، قال تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون: 3]"[1]، "والطَّبْع: الخَتْم: وهو التأثير في الطّين، وقوله تعالى: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف: 100]، أي: نختم عليها مجازاة لهم فلا يدخلها الإيمان"[2].

2) ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾: "الغَفْلَةُ: سَهْوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفُّظ والتّيقُّظ، يقال: غَفَلَ، فهو غافِلٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ

(1) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 494.

هَذَا﴾ [ق: 22]، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: 1]، ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: 102]"[1]، ومعنى الآية: السّاهون عمّا أعدَّ الله لأمثالهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـرتـدّون بعد إيمانهم غارقون في الغفلة

بيّنت الآيةُ الكريمة أنَّ أولئك الموصوفين "بما ذكرتْه الآيات السابقة – مِن ألوان الكفر، وقبائح الأعمال – خَتَمَ الله على قلوبهم فصارت مغلقة لا تقبل الحقَّ، وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماعَ فهْمٍ وتدبّرٍ كأنهم صُمٌّ، وختم على أبصارهم فلا تحسن رُؤْية ما يحيط بهم من عجائب الكون التي تتحدث بقدرة الخالق، ووحدانيّة المبدع جلّ شأنه، وأولَئِك هم الغارقون في الغفلة البالغون غايتها ومنتهاها دون سواهم"[2].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ أثر الطبعِ في القلوب، والأبصار، والأسماع يورثُ البعدَ عن فهم المواعظِ، وعن كلام الله تعالى، وعن النظر في الآياتِ، والسَّهوِ عمّا يراد بهم، بحيثُ يُطبعُ على قلوبهم فلا يدخُلُها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذُ منها ما ينفعُهم ويصلُ إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلةُ وأحاط بهم الخِذْلان، وحُرموا رحمةَ الله التي وسعت كلَّ شيء، وذلك أنّها أتتهم فردّوها، وعُرضت عليهم فلم يَقبلوها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلَها:

حرمانُ المرتدِّين الـهـدايـةَ بـحـرمـانـهـم الانـتـفـاع بوسائلها

فُصِلتْ هذه الآيةُ الكريمة لاتّصالها الوثيق بالتي قبلها؛ لأنّها "بيان لخاتمةِ الآية السابقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فهم لن يهتدوا؛ لأنهم اختاروا الضلالة، فطبع الله سبحانه على

(1) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 449، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450.

قلوبهم؛ فلا يصل إليها الإيمان، وعلى سمعهم وأبصارهم فلا يهتدون بهما"[1]، ولبيان أنَّ "حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانية، ومن الوعي لدعوة الرسول ﷺ والقرآن المنزل عليه، ومِن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به"[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسم الإشارة:

التحقير والتّهوين مِن شأن المرتدّين

الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ واردة على هؤلاء الكافرين الذين وصفهم الله ﷻ في الآية السابقة؛ "لتمييزهم أكمل تمييز تبيينًا لمعنى الصلة المتقدمة، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد"[3]، وفيها "زيادة في تحقير المشار إليهم وهم المرتدّون؛ لأنّ الإشارة إلى الشيء في سياق التكريم تكريم، وفي سياق التحقير تحقير"[4].

وجهُ الإخبار عن اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ باسم الموصول:

قومٌ مغضوبٌ عليهم لم يستثمروا أسبابَ الهداية المتاحة لهم

"أخبر عن اسم الإشارة في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالموصول؛ لِما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الحكم المبيَّن بهذه الجملة، وهو مضمون جملة ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾"[5]، و"للتشهير بهؤلاء المرتدّين، أي: أولئك هم بعينهم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فاعرفوهم"[6].

سِرُّ التّعبير بالطّبع دون الختم:

كُفْرُ المرتدّ دليلٌ على خُبث طبيعتِه وسجيّته

جاء التّعبيرُ بالطّبع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ دون الختم لوجود فرق بينهما؛ فالطبع هو التأثير في الطين

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(6) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.

ونحوه، وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف ونحوه، والطبع على الشيء هو خاتمه، وهو أعمُّ من الختم؛ لذلك آثر القرآن الكريم التعبير به مع الذين ارتدّوا بعد إيمانهم ليكون الطبع علامةً وسمة يُعرفون بها، ولأنّ الطبع من الطباع والسجية؛ فيدل على الثبوت واللزوم، بخلاف الختم فإنه يدلُّ على المنع والتغطية من دخول شيء أو خروج شيء؛ لذلك كان التعبير بالطبع هو المناسب هنا مع المرتدّين؛ لأنَّ الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف في القلب معنى الإيمان؛ فيؤدّي ذلك إلى إضعاف إدراك الحق، وذلك لأنّ الكافر بعد الإيمان قد طُبع على مداركه بطابع يمنع من الوصول إلى الفهم والعلم؛ فيسمع ولا يتدبّر، وينظر ولا يعتبر؛ لأنّ قلبه مرض بسبب كفره بعد إيمانه[1].

وهناك من ذهب إلى أنّ الطبع لا يمنع من الإيمان بعدّة أدلة: **الأول:** أنه تعالى ذكر ذلك في معرِض الذمّ لهم، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقّوا الذمّ بتركه، **والثاني:** أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب في هذا الطبع، ومعلوم من حال السمع والبصر أنَّ مع فقدهما قد يصحّ أن يكون مؤمنًا فضلًا عن طبعٍ يلحقهما في القلب، **والثالث:** وصفهم الغفلة، ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه، فثبت أنّ المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب، وإذا ثبت ذلك كان إيثار مفردة الطّبْع هنا موارَبة لباب التوبة، وتنحية التيئيس جانبًا؛ لعلهم يثوبون من قريب، وبخاصّة أنهم ذاقوا شيئًا من حلاوة الإيمان قبل أن يرتدّوا، والواقع جارٍ بهذا، فقد رأينا كثيرًا ممن ارتدّوا وهاجموا الدين بضراوة ثم عادوا منافحين عنه بقوّة، ولو عبّر بالختم لأغلق عليهم باب التوبة، وحرمهم من الأوبة، وعن مجاهد قال: "الرّانُ أيسَرُ من الطَّبْع، والطَّبع أيسر من الأقْفال، والأقفال أشدُّ ذلك كله"[2].

ولعلّ المقصود بالطبع هنا ما يُخَلِّفه من وسْم على المطبوع؛ فيكون علامة فضْحٍ لصاحبه إذا كان وسم كفر، والأولى أنَّ الطبع أشدُّ من الختم ودليلٌ على عدم الإيمان؛ بدليل إسناد الطبع إلى المنافقين في آيات القرآن الكريم، ولأنّ الطبع يحصل من تزايد الرّان لهم وترادف ما يزيد الكفر؛ لذلك فالطبع أشدّ مِنَ الختم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4279.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 259.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾:

منعُ وصولِ الإيمانِ إليهم بتشبيه المعقول بالمحسوس

"الطّبْعُ بالسّكون: الخَتْمُ، وبالتّحريك الدَّنَس، وأصلُه من الوَسَخ يَغشى السيف، ثم استعمل فيما يُشبه ذلك من الآثام والقبائح"[1]، فهو هنا "مستعار لِمَنْع وصول الإيمان وأدلَّته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس"[2]، و"المقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر"[3]، وهو هنا يعني "جَعْل الشيء سجية وطبيعة، ومن هنا قيل: طَبْعُ الإنسان: عادته، والطبع على قلوب المرتدّين يكون بجعل الإعراض عن الإيمان والهدى طبيعةً لِهذه القلوب، فلا تتَّعظ ولا تلين أبدًا"[4].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿طَبَعَ﴾:

تحقُّقُ الوقوعِ وثُبوت الطبع للمرتدّين

جاء التّعبيرُ بالماضي ﴿طَبَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ دون المضارع (يطبع)؛ لأنه يفيد مع تحقُّق الوقوع ثبوت الحكم عليهم بالخلود في الضلال.

دلالةُ إسناد الطبع إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

عِظَمُ انتكاسِهم بإرادة الله سلبَهم نورَ الهداية

أسند النظم الكريم الطبْعَ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾؛ تعظيمًا لهذا الطبْع؛ لأنّ من ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ على قلبه فليس هنالك أحدٌ في الوجود يستطيع إزالة هذا الطبع[5]، وفيه دلالة على مزيد من الترهيب والتهديد.

سِرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

تمكُّنُ انغلاقِ قلوبهم فلا يدخلها هدى

عبّر القرآن الكريم بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ للدلالة على استعلاء الطبع على قلوبهم

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 6/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 685.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.

وتمكّنه منها؛ فلا يدخل منها شيء، ولا يخرج منها شيء، ولأنه يناسب الطّبْع والوَسْم الذي يُنقَش على المختوم، ويعلوه ظاهرًا غير خفيّ ولا مستور.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿قُلُوبِهِمْ﴾:

تجهيلُ قلوبِ المُزتَدّين، وتناسي ذكرِهم بالإبعاد

إضافة النظم الكريم القلوبَ إلى ضميرِ الكفار (هم) دون إظهار اسمهم هكذا: (قلوب الكافرين)؛ دل على نُكران تلك القلوب وذَمِّها، وتخصيصِها بالخزي والتجهيل، وإبعاد ذكرهم الصريح عن ساحة الطُّهر والجلال؛ ذلك أنها (قلوبٌ) "أبت عن إدراك الحقِّ والتأمل"[1]؛ فطبع الله تعالى عليها طابع الكفر، فلا تقبل إيمانًا، ولا تطمئن إليه[2].

غرضُ البَدءِ بالطّبع على القلوب قبل السّمع والبصر:

القلوبُ محلُّ الإيمان، والسّمعُ والبصر آلتا الإيصالِ إليه

بدأ النّظم الكريم بالطّبع على القلوب قبل السّمع والبصر؛ لأنّ القلبَ محلُّ الإيمان، والحواسّ خادمة القلب، وموصِّلةٌ إليه[3]، ولأنّ هذه الآية جاءت عقب الآيات السابقة التي نفت عنهم الإيمان، والإيمانُ تصديق يقوم على الحجّة والبرهان، وإدراك الحجّة والبرهان إنما هو في القلب، فكان التعليل المتّصل الواضح لنفي الإيمان أنّ قلوبهم مغلقةٌ لا تنفذ إليها الحُجَّة، ولا يتسرّب إليها نور البرهان؛ لذلك قدّم القلب على السمع[4].

وجهُ تقديم القلبِ في الذّكر على السّمع:

مراعاةُ السّياق وسَكْب المعاني ضرورةٌ بلاغيّةٌ

قدّم القرآنُ الكريم ذكر القلب على السمع في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ﴾، بخلاف سورة الجاثية؛ حيث قدّم السمع في الذكر على القلب فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 2/ 398.
(4) عباس، التّفسير والمفسّرون في العصر الحديث: 2/ 494.

ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: 23]؛ ذلك لأنه سبحانه في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفًا على قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]، ومن اتخذ إلهه هواه، يكون أوّل ما يبدو منه للناس ويُعرف؛ هو إعراضه عن النصح، ولَيُّ رأسه عن استماع الحجّة، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، فلذلك قدّم السمع على القلب؛ أما هنا فقدّم القلب مناسبة لسياق الآيات التي تتحدّث عن كفر المرتدّين وعدم إيمانهم، والكفر والإيمان محلّهما القلب؛ فكان مناسبًا تقديم القلب على السمع.

سِرُّ ترتيبِ الطّبع على السّمع بعد القلب:

القلب مَلِكٌ، والحواسُّ خادمةٌ له

جاء ترتيب الحواسِّ في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ﴾ من الأعلى إلى الأدنى - وليس العكس - تعظيمًا لقوة هذا الطّبْع، وفي هذا السياق يحتلّ القلب المنزلة الأهم؛ لأنه هو الأصل في موضوع الإيمان، والسمع أهمُّ من البصر، ثم تأتي منزلة الأبصار في الاعتبار وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالهداية.

عِلّةُ التّعبيرِ بالسّمع دونَ الأُذن:

الطّبْع يكون على السّمع بِحَجْب المسموع، لا على آلته

في إيثار النظم الكريم التعبير بالسمع دون الأُذن في قوله تعالى: ﴿وَسَمۡعِهِمۡ﴾ تنويهٌ بالغاية لا بالوسيلة؛ فالمسموع الواصل إلى القلب هو الغاية، أما الأُذُن فآلته التي تلتقطه من الأثير، وذلك يتمّ فِعلًا ولا يُحجب، وإلا لعُفي عنه؛ لأن الطّبْع حقيقة لا يكون على الأذن، وإنما يكون بِحَجْب المسموع عن الوصول إلى العقل والقلب؛ لذلك طبع "الله ﷻ على سمعهم، فلا يسمعون كلمةَ الحق، وعليه فلا يستجيبون لها"[1].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.

سِرُّ التّعبيرِ بالإفراد في قوله: ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم في السمع بالإفراد؛ فقال: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ﴾ دون الجمع في (أسماعهم)؛ لأنه مصدر لا يُثنّى ولا يجمع، ويصدق على القليل والكثير، ولأنّ السمع متعلّقه ما يلقى إليه من الكلام؛ فإذا سمعه جماعة من الناس، سمعوه سماعًا متساويًا، وإنما يتفاوتون في تدبّره.

إيذانًا مِنَ الله بأنّ حُجَّته واحدة، ودليلَه واحد لا يتعدّد

وفيه إشارة إلى توحّد وسيلة الإدراك في حاسة السمع، وهذا ما أثبته العلم الحديث؛ فكشف عن وجوه كثيرة، منها: "أنَّ حاسّة السمع يمنحها الله للطفل قبل حاسة الإبصار، وأنّ السمع إنما يُدرك به شيء واحد، وهو الأصوات، بينما يُدرك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال، وكان هذا لا يتعارض مع مفهوم الآية ومنطوقها، ولا يعارض أثرًا عن الرسول ﷺ فما المانع أن يقبل تفسيرًا علميًّا للآية فيكون إعجازًا قرآنيًّا خالدًا؟"[1].

ولأنّ المسموع بالنسبة للناس جميعًا شيء واحد، فعندما يسمعون كلام المرسلين كأنهم على سمع واحد، "فكان إفرادُ السمع إيذانًا من الله بأنّ حجّته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد"[2].

دلالةُ التّعبير بالأبصار دون (أعينهم):

ذكر اللهُ الأبصار دون العيون في قوله تعالى: ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ لأنّ العيون مجرَّدُ آلةٍ للإبصار، وهي المترجمة للأشكال والألوان، أمّا الأبصار فهي الغاية؛ فهم "لا يبصرون مواقع الهدى، ولا يتّجهون إليها"[3]؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، والمراد أنّهم لا يرون الأشياء رؤيةَ اعتبار، ويؤكد ذلك ما ورد في دعاء

الإبصارُ هو الغاية، وهم لا يرون الأشياء رؤيةَ اعتبار

(1) عباس، التّفسير والمفسّرون: 1/ 627.
(2) عباس، التّفسير والمفسّرون: 2/ 494.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.

الرّسول ﷺ: "وَمَتِّعْنا بِأسْماعِنا وأبْصارِنا وقوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا"[1]، فذكر الأبصار دون العيون في دعائه.

سِرُّ التّعبيرِ بالجمع ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ دون المفرد:

الأبصارُ متفاوتةٌ في إدراك المرئيات

عبّر القرآنُ الكريم بالجمع في لفظ الأبصار في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ لأنها متفاوتة في إدراك المرئيات؛ فكل بصر له حظّه من الرؤية والاعتبار في الآيات الكونية والقرآنية، ولأنّ المَشاهد التي تراها العين متعدّدة في المجال الواحد؛ فهناك مشهدٌ من جانب اليمين، ومشهدٌ من جانب اليسار، إلى غير ذلك من الجهات الست، والأنظار "تختلف في عمق تدبرها وضحالته، فكان مِن ذلكم تعدّد المبصِرين بتعدُّد مقادير ما يستنبطون من آيات اللّه في الآفاق"[2].

لطيفةُ الجمعِ في الطّبع بينَ القلوب والأسماع والأبصار:

إشباعُ السّياق بالذّمّ لمن عطَّلَ الانتفاعَ بحواسّه

جَمع الذّكرُ الحكيم هنا بين القلوب والأسماع والأبصار في الطبع دون مواضع أخرى، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: 100]؛ لأنّ القضية هنا خطيرة، والجرائم هنا متعدِّدة، ذلك أنَّ الكافر ترك الإيمان بعد أن ذاق بعضًا من حلاوته؛ لكن قلبه كان مريضًا، فلم يستعذب هذه الحلاوة لمرض قلبه؛ لذلك فالسياق مشبَّع بالذمّ لمن شرح بالكفر صدرًا.

سِرُّ تقديمِ السَّمع على البَصر:

السَّمعُ مِن لوازم النُّطق؛ فمتى بَطل السَّمعُ بطلَ النُّطق

قُدّم السّمعُ على البصر[3] في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ

(1) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (3502)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (10234).

(2) عباس، التّفسير والمفسّرون: 2/ 494.

(3) "إلّا في مواطن قليلة، منها في سورة الكهف: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [الكهف: 26]، لأنّ السّياق يقتضي ذلك، فقد خرج أهلُ الكهفِ فارّين حتّى لا يراهم أحدٌ، لكنّ الله تعالى يراهم في ظلمة الكهف، وفي تقلبهم ذاتَ اليمين وذات الشمال، وفي سورة السجدة: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ [السجدة: 12] قدّم البصرَ هنا، لأنّهم كانوا يسمعون في الدّنيا ويكذبون في الآخرة، وأبصروا العذابَ والحقيقةَ، وقولهم: يعني أنهم موقنون، واليقين لا يتأتّى إلّا بالإبصار، وليس بالسّمع ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 7]، لأنّهم رأوا العذاب عين اليقين"، يُنظر: السّامرّائي، لمسات بيانية، ص: 47.

وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ لأنّ السّمعَ أوّلُ عضوٍ يؤدّي وظيفته عند الطّفل ساعةَ الولادة؛ بخلاف العين فإنّها تؤدّي وظيفتَها بعد مُدّة مِنَ الزّمن.

ولأنّه بالسمع تصل نتائج عقول بعض الناس إلى بعض، فهو سببٌ لاستكمال العقل بالمعارف، ولأنه متصرِّفٌ في الجهات السِّتِّ بخلاف البصر، ولأنّ السمع متى بَطل بطل النطق، والبصرُ إذا بطل لم يبطُل النطق.

فائدةُ ختامِ الآية بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾:

غفلتُهم مُطبِقة، فهي تُنافي حالةَ الاهتداء

ختمت الآية بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ الغفلة صفة نقصٍ أدّت إلى حرمانهم من نور الإيمان؛ لذلك كان المراد وصفهم بما أدّى إلى كفرهم بعد إيمانهم، فهم الغافلون الأكملون في الغفلة؛ لأنَّ الغافل البالغ الغاية ينافي حالةَ الاهتداء[1]؛ إذ "كانوا في غفلة مطبقة عن كل ما يصلهم بالحق، أو يلْفتهم إليه"[2].

بلاغةُ القَصْر في ختام الآية:

بلوغهمُ الغايةَ والتّمام في الغفلة

القصر في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ "يُفيدُ أنَّهُم مُتَناهونَ في الغَفْلَةِ؛ إذْ لا غَفْلَةَ أعْظَمُ مِنْ غَفْلَتِهِم هَذِهِ"[3]، وهو "قصرُ موصوف ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ على صفة ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، وهو قصر حقيقيٌّ ادعائي، يقصد به المبالغة، لعدم الاعتداد بالغافلين غيرِهم؛ لأنهم بلغوا الغايةَ في الغفلة حتى عُدَّ كلُّ غافل غيرهم كمن ليس بغافل، ومِن هنا جاء معنى الكمال في الغفلة، لا مِن لام التعريف"[4].

دلالةُ التّعبيرِ بضمير الفصل:

الغافل الحقيقيُّ مَـن غـفَـل عن حقيقة الآخرة

دلَّ التّعبير بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 297.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 379.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 236.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 298.

﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ على التخصيص، "فمن غَفَل عن حقيقة الآخرة فهو الغافل الحقيقي؛ لأنه بغفلته هذه لا يخسر تجارة أو مالًا، وإنما يخسر كل حياته"[1].

براعةُ التّعبيرِ باسم الإشارة:

إبعادُ المرتدّين عن ساحة التّوحيد والطّهر

التّعبيرُ باسم الإشارة المخصوص بالبعيد في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾، يُشيرُ إلى بُعْدِ المُرتدّين - الذين شرحوا بالكفر صدورَهم - في أوديَة الضَّلال؛ وإبعادِهم الشُّقَّةَ في الجُرم؛ إذ لا أحدَ أضلُّ مِمَّن عَرف الحَقَّ ثُمّ جَحَدَه عن بيّنةٍ، متَّخِذًا إلَهَهُ هواه، كما أنّ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُبْعِد هؤلاء المُنتكَسين ويَطْرُدُهم عن ساحة التَّوحيد والطُّهر، ويَحْجِبُهم عن أنوار الآيات، ويحرمهم هداياتها.

سِرّ التّعبيرِ بصفة الغفلة:

وصف الكافرين بالغفلة من أبلغ أساليب الذّمّ

آثر السياق وصْفَ الغفلة في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ الأمر متعلِّق بالكفر بعد الإيمان، بل بشرح الصدور بالكفر بعد استنارتها بنور الإيمان وباهر الآيات؛ فاقتضى السياقُ المبالغةَ في ذمِّ هؤلاء المرتدّين، ولا ذمَّ أبلغ من وصفهم بالغفلة، وحصر الغفلة الحقيقية فيهم، وقصْرِها عليهم.

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾:

كمالُ غفلةِ المرتدّين، وفداحةُ خسرانهم بها

تدُلّ (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ على كمال غفلتهم، وفداحة خسرانهم بها؛ فـ "هؤلاء الذين فضّلوا الدنيا الزائلة على الآخرة الباقية، هم الغافلون الحقيقيون"[2]، و"لا غفلةَ أعظمُ من الغفلة عن تدبُّر العواقب"[3].

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 217.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 144.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّة ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

الغفلةُ مترسِّخَةٌ في الكافرين وسجيَّةٌ لهم

إيثار التّعبيرِ بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ يقرِّر أنّ الغفلةَ صارت متجذِّرةً فيهم، وصارت فيهم سجيّةً، وأنهم هم "الكاملون في الغفلة والبلاهة؛ إذ لا غفلةَ أشدّ من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية"[1].

بلاغةُ حذفِ المغفول عنه:

عمومُ غفلةِ المرتدّين عن كلّ ما يُرضي الله

سكت الذِّكر الحكيمُ عن المغفول عنه؛ لتعدد المراد به فـ "يُحتمل أنّهم غافلون عن النظر في آياته وحُجَجِه، ويُحتمل أنّهم غافلون عمّا يَحُلُّ بهم؛ بكفرهم وتكذيبهم آيات الله وحُجَجَه"[2].

ويُفسِح حذف المغفول عنه توفير عناية المتلقّي على إثبات الغفلة لهم، ليُجعَل إطلاق الغفلة، وعدمُ تقييدها بمغفول عنه أصلًا؛ كنايةً عن مغفول يقتضيه السياق، والسياق هنا يقتضي أن تكون الغفلة كما يقول ابن عباس: "غافلون عمّا يراد بهم"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّبْعُ والختم:

النّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بينَ الطّبع والخَتم، ذلك أنَّ الطّبْع في اللّغة أثرٌ يَثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يُفيد معنى الثّبات واللُّزوم، والختم معناه المَنع، ويطلق على حفظ ما في الكتاب بتعليم الطينة، تقول ختمت الشيء ختمًا فهو مختوم، والخاتم ما يوضع على الطينة؛ فالملاحظ أنَّ الختم يطلق على تأثير الشيء كنقش الخاتم، والطبع: الأثر الحاصل عن النقش، وعلى هذا فالطبع يختلف عن الختم، ولهذا يقال: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 242.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 582.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 87.

يُؤثِّره فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طَبْع الإنسان؛ لأنه ثابت غير زائل، وقيل: طُبِع فلانٌ على هذا الخُلق، إذا كان لا يزول عنه، وقال بعضهم: الطّبْع علامةٌ تدلُّ على كُنْه الشيء، قال: وقيل: طبْع الإنسان؛ لِدلالته على حقيقة مِزاجه من الحرارة والبرودة[1].

هذا من ناحية اللغة؛ أما في الاستعمال القرآني؛ فالطبع غالبًا ما يرد في جانب المنافقين والآيات في هذا كثيرة، بخلاف الختم فإنه يرد غالبًا في جانب الكفار، ومعلوم أنّ المنافقين أشد ضررًا من الكفار؛ لذلك فالكفر ثابت في قلوبهم ثبات الطبع في الإنسان، فأصبح كالإلف والطبيعة له، أما الختم فهو مسندٌ غالبًا إلى الكفار؛ لما وضعوه على أنفسهم من القيود التي تمنعهم من الإيمان، يؤكد ذلك ما ذكره القرآن في سبب عدم إيمانهم في سورة البقرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 6 - 7]؛ فلمّا نفى عنهم الإيمان بيّن العلة المانعة لذلك؛ لأنّ الله ختم على قلوبهم، فلا يصل إليها الإيمان لعنادهم، وعلى ذلك فالختم قفلٌ ومنع، والطبع شارةٌ وعلامة.

العين والبصر:

"أنَّ العين آلةُ البصر وهي الحَدَقة، والبصر اسم للرؤية؛ ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى، وربما يجري البصر على العين الصحيحة مجازًا، ولا يجري على العين العمياء، فيدلل هذا على أنه اسم للرؤية على ما ذكرنا، ويسمى العلم بالشيء إذا كان جليًّا: بصرًا، يُقال: لك فيه بصرٌ؛ يُراد أنك تعلمه كما يراه غيرك"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 336.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 381.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»